جامــعة واســط
مجلـــــة كليـــــة التربيـــة

العـدد الحادي والأربعون
الجزء الرابع /تشرين الثاني/٢٠٢٠

المكانة الأجتماعية للمغاربة في مصر في العصر المملوكي

م.د. صلاح حسن محمد
وزارة التربية / مديرية تربية نينوى
Omer2012salah@gmail.com

الملخص.

أحتضنت مصر في العصر المملوكي (٦٤٨- ٩٢٣هـ/ ١٢٦٢- ١٥١٦م)، وبكل فئاتها الاجتماعية العديد من الوافدين إليها من البلدان الأخرى، ومنهم المغاربة القادمين من بلاد المغرب والأندلس، من علماء، وحجيج، ورحالة، ومهاجرون مستقرون وغيرهم، ومن أجل ضم هؤلاء في المجتمع وأبعاد شعور الغربة والوحدة عنهم، فقد أحتوتهم أيدي وقلوب العلماء والسلاطين وعامة أهل مصر في جو من الألفة والمحبة جعلتهم يعشقون أرض مصر وأهلها.

لقد عاش المغاربة في مصر حياتهم على نفس النمط الذي أعتادوه في بلادهم الأم، بل أسهموا أيضاً في نقل بعض عاداتهم وتقاليدهم الأجتماعية إلى مصر، بحكم المكانة التي حضوا بها لدى كل فئات المجتمع المصري، مما وفّر لهم جواً ساعدهم على التفاعل مع المجتمع الجديد.

تم تقسيم البحث إلى مدخل وثلاث أقسام، ضم الأول مكانة المغاربة لدى علماء مصر لاسيما العلماء والتلاميذ منهم، وضم القسم الثاني مكانتهم لدى السلاطين المماليك من خلال عدد من المواقف التي جمعت المغاربة بالسلاطين المماليك، وجاء القسم الثالث ليعرض مكانتهم لدى عامة أهل مصر من خلال حجم التكريم والأهتمام الذي حضى به المغاربة هناك.

الكلمات المفتاحية: المكانة الاجتماعية، المغاربة، مصر، العصر المملوكي.

The social standing of Moroccans in Egypt in the Mamluk era Summary

ABSTRACT

Egypt embraced many of its immigrants from other countries in the Mamluk period (648-923 Ah/1262-1516 AD), and in all its social categories, many of its immigrants from other countries, Among them are Moroccans from Morocco and Andalusia, scholars, pilgrims, voyagers, settled immigrants and others, and in order to include these in society and keep them away from feeling strangers, they contained the hands and hearts of scholars

and sultans and the general people of Egypt in an atmosphere of intimacy and love that made them love the land of Egypt and its people.

Moroccans in Egypt have lived their lives in the same way they used to in their home countries, but have also contributed to the transfer of some of their social customs and traditions to Egypt, given the status they have in all categories of Egyptian society, which has provided them with an atmosphere that has helped them to interact with the new society.

The research was divided into an entrance and three sections, the first included the place of Moroccans among Egyptian scholars, especially scholars and pupils, and the second section included their place among the Mamluk sultans through a number of positions that brought moroccans together with the Mamluk sultans, and the third section presents their place among the general Egyptians through highlighting the honored interest that the Moroccans received there.

Key words: The social standing, Moroccans, Egypt, Mamluk era.

المدخل.

لقد وفرت مصر للوافدين إليها من المغاربة والأندلسيين، القادمين للبحث عن مصادر الرزق، والساعين لطلب العلم، والمهاجرين بفعل ضغط الممالك الأسبانية للبحث عن موطن جديد، ولاسيما في عصر الحروب الصليبية ومنها العصر المملوكي، مكانة أجتماعية جيدة، بفضل الدعم والرعاية المتواصلة من قبل العلماء والسلطة المملوكية وأهالي مصر الذين قدموا المساعدات لهؤلاء المغاربة الوافدين إليهم وعلى أختلاف مستوياتهم الأجتماعية، حيث وفّرت لكل منهم الدعم والرعاية وفرص العمل السهلة المناسبة لهم (ابن جبير، د.ت، ص٢٥؛ محمد، ٢٠٠٠، ص٢٨).

لم يشعر المغاربة بكل فئاتهم التي وصلت مصر في العصر المملوكي بأنهم غرباء وسط الحفاوة والأهتمام التي لقوها من أهل مصر، ومن تلك الفئات العلماء سواء منهم المتعلمين أم الشيوخ الذين أسسوا حلقات العلم في موطنهم الجديد. ويعد الرحالة ابن جبير (ت: ٦١٤هـ/ ١٢١٧م)، من أبرز الداعين لتوجه العلماء المغاربة إلى مصر من خلال ترغيبهم بما ينتظرهم من مكانة أجتماعية تناسب مكانتهم التي أعتادوا عليها في بلدانهم، فيقول :"... فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد ويتغرب في طلب العلم. فيجد الأمور المعينات كثيرة، فأولها فراغ البال من أمر المعيشة وهو أكبر الأعوان وأهمها. فإذا كانت المهمة، فقد وجد السبيل إلى الأجتهاد..." (ابن جبير،

د.ت، ص٢٣٢). وقد أسس الرحالة ابن جبير هذه النظرة من خلال زيارته لمصر وتجواله فيها وإطلاعه على طبيعة الأحوال الأجتماعية بمصر التي تساعد على التعايش والأندماج مع المجتمع المصري، إلى جانب الغاية الأساسية من الرحلة وهي طلب العلم والرزق.

فأرتحل إلى مصر أعداداً كبيرة من المغاربة طلباً للعلم من مشايخ مصر وعلمائها المشهورين (مسعد، ٢٠٠٢، ص٦)، إلى جانب دورهم في نقل علمهم إلى مصر.

أولاً:- مكانتهم لدى علماء مصر.

يمكن ملاحظة حجم الحفاوة والترحيب التي لقيها المغاربة أثناء وجودهم بمصر، من خلال العلاقة والمكانة المرموقة التي ربطتهم بأساتذتهم ونظرائهم وتلاميذهم المصريين. ومن ذلك ثناء العلامة المصري تقي الدين بن دقيق العيد (ت: ٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م)، على أهل المغرب عامة، وتلميذه التجيبي السبتي (ت: ٧٣٠هـ/ ١٣٣٠م) صاحب الرحلة خاصة، وذلك عندما ألتقى به، فقال له :"أنا أحب المغاربة وأعتني بهم وأسميهم عشاق مكة"، وطلب منه البقاء بمصر وملازمة شيخه ابن دقيق العيد، إلا أنه أعتذر منه لتوجهه لفريضة الحج، وقد تأثر التجيبي كثيراً بهذه الحفاوة والمكانة التي تمتع بها عند شيخه، وصار يردد :"ولو لم يركب ثبح (أهوال) البحر إلا للقاء هذا الأمام الفاضل، لكانت الصفقة رابحة والوجهة ناجحة" (التجيبي، ١٩٧٤، ص٢٠-٢١). وهو تعبير عن رد الجميل من التلميذ لحفاوة أستاذه وتكريمه وأهتمامه به.

كما عبّر ابو عبد الله محمد بن علي بن عمر العبدري (ت: ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م)، عن أفتقاده إلى حسن مكانته عند رفاقه المصريين الذين حظي عندهم من الأهتمام وحسن المعاملة ما لم يناله في بلده، حتى صار يردد في شعره قائلاً (لسان الدين ابن الخطيب، ٢٠٠٣، ج٢/ ص٤١٨-٤١٩):

أحبتنـــــا بمصـــــر، لـــــو رأيـــــتم بكـــــائي عنـــــد أطـــــراف النهـــــارِ

لكنـــــتم تشـــــفقون لفـــــرط وجـــــدي ومـــــا ألقـــــاه مـــــن بعـــــد المـــــزارِ

وعرف عميد عائلة القرطبي بمدينا قنا (ياقوت الحموي، ١٩٩٥، ج٤/ ص٣٩٩) المصرية، الفقيه والمحدث المالكي ضياء الدين ابو العباس أحمد بن أبي عبد الله محمد بن عمر بن يوسف بن عبد المنعم (ت: ٦٧٢هـ/ ١٢٧٤م) (اليونيني، ١٩٥٤، ج٣/ ص٣٥-٣٦؛ الأدفوي، ١٩٦٦، ص١١٢-١٢٥؛ العيني، ١٩٨٧، ج٢/ ص١٢٧)، بمكانته الأجتماعية المرموقة في المدينة من خلال مهارته الكتابية التي أظهرت قدرته الأدبية على نظم الشعر والترسل بجميل العبارات، والتي كان

من نتائجها تكوين علاقات حسنة مع أعيان مدينة قنا وأسرها المعروفة بعلمائها، إلى جانب ما أكسبته تلك المهارة من مكانة مع كبار رجال الدولة في القاهرة (الأدفوي، ١٩٦٦، ص١١٤). تلك المهارة التي بنت له ولعائلته مكانة كبيرة لدى مختلف فئات المجتمع المصري.

وكان ضياء الدين القرطبي حريصاً على أستمرار علاقته الحسنة برفاقه وأعيان عصره من المصريين، تعبيراً عن حسن التعامل معه ومع أفراد أسرته، وذلك من خلال مبادرته بالكتابة إلى الفقيه كمال الدين أحمد بن البرهان (ت: ٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م) ناظر قوص ورئيسها يقدم فيها الأعتذار لأمر حدث بينهما، مما رفع من مكانته في عين الكمال بن برهان الذي كتب إليه بقصيدة جاء فيها (الأدفوي، ١٩٦٦، ص٨٧-٨٨):

يـا أبـن الأكـارم مـن بنـي الأنصـارِ ... والمـالكين زمـام كـل فخـارِ

والسـابقين الأولـين إلـى العـلا ... والقـائمين بنعـرة المختـارِ

لقـد أسـتطار النـوم مـن عينـي بمـا ... أبـديت مـن حـرقٍ ومـن أكـدارِ

وأحـال أضـغاثاً تقـادم عهـدها ... فـي القلـب رحـى واضـح الأعـذارِ

وذكر أبن سعيد الأندلسي أن ضياء الدين القرطبي قد أرتبط بعلاقات مودة مع الشاعر المصري جمال الدين ابي الحسين الجزار (ت: ٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م)، وقد مدحه ببعض القصائد الشعرية التي تعبر عن مكانته الأجتماعية في مصر (ابن سعيد الأندلسي، ١٩٥٣، ج١/ ص٣٣٨-٣٣٩). وترك ضياء الدين القرطبي ذريةً حافظوا على المكانة الأجتماعية لهذه الأسرة المغربية بمدينة قنا بين أفراد المجتمع المصري، ومنهم كمال الدين محمد (ت: ٦٩٣هـ/ ١٢٩٤م) (الأدفوي، ١٩٦٦، ص٤٨٤؛ الصفدي، ٢٠٠٠، ج٢/ ص٩٩)، ومحيي الدين أحمد (ت: ٧٠٩هـ/ ١٣١٠م) (الأدفوي، ١٩٦٦، ص١١٠-١١٢).

ومن الأسر المغربية التي نالت مكانة اجتماعية مميزة لدى علماء مصر وأعيانها، أسرة القسطلاني التي نوه ابن سعيد الأندلسي إلى مكانتها في مدينة الفسطاط وذكر أنهم، "في الأصل من قسطيلية، جهة من أعمال أفريقية، سكنوا في القديم بالفسطاط فصاروا من أعيانه"، وذلك خلال حديثه عن شمس الدين ابي الخير مبشر بن القسطلاني عالم الحديث والفقه بمدينة الفسطاط (ابن سعيد الأندلسي، ١٩٥٣، ج١/ ص٢٦٨).

وأكراماً للمغاربة في مصر وتأكيداً على تغلغل عاداتهم وتقاليدهم الأجتماعية بين المصريين بحكم تلك المكانة التي نالوها عند أقرانهم من العلماء فأن بعض أهل مصر صار يتحدث بكلامهم، وأشتهر أثير الدين محمد بن عمر الخصوصي القاهري (ت: ٨٤٣هـ/ ١٤٣٩م)، بأنه كان "يحسن كلام المغاربة، حتى لا يشك سامعه أنه منهم" (السخاوي، ١٩٣٤، ج٨/ ص٢٥٦)، ومن صور التقاليد التي نقلها المغاربة لمصر طريقة التحدث بصيغة بصيغة الجمع من قبل الشخص المفرد المتكلم، كأن يقول: نأكل، ونشرب، بدلاً من أكل، وأشرب، والتي أستخدمها أهل المغرب ونقلوها إلى مصر وأنتشرت لدى أهل الأسكندرية إلى وقتنا هذا (عبد الحميد، ١٩٧٥، ص٢٠٩)، فضلاً عن أنتشار الأكلات المغربية في مصر والتي كان من أبرزها أكلتي الحلزون والكسكسو المغربية (مؤلف مجهول، ١٩٦١، ص٢٥- ٢٦، ١٨١).

ومن صور سمو المكانة الأجتماعية للمغاربة في مصر، كانت من خلال تقليدهم في الملبس، حيث أشتهر أهل الأندلس بتفضيل الزي الأبيض للتعبير عن الحزن مما أنعكس على علماء مصر واهلها، تعبيراً منهم عن مكانتهم بين أفراد المجتمع المصري، وقد قيل في ذلك (المقري، ١٩٩٧، ج٤/ ص١٠٩):

إذا كـــان البيـــاضُ لبـــاس حـــزنٍ ... بأنـــدلس، فـــذاك مـــن الصـــوابِ

ألـــم تـــرى لبســـت بيـــاض شـــيبي ... لأنـــي قـــد حزنـــت علـــى الشـــبابِ

ثانياً:- مكانتهم لدى السلطة المملوكية.

إلى جانب الحضوة التي لقيها المغاربة لدى زملائهم وأقرانهم من العلماء والتلاميذ المصريين، كانت لهم حضوة ومكانة لدى السلطة المملوكية أيضاً، ويتضح ذلك من خلال العديد من الشواهد التي أثبتت تلك المكانة التي تمتع بها هؤلاء المغاربة. ومن ذلك موقف الفقيه إسماعيل بن عمر المغربي نزيل الثغر تجاه أحد أهالي الأسكندرية طالباً شفاعته لدى أحد المسؤولين لأطلاق سراحه من السجن، فنجح في مسعاه وأطلق سراح السكندري من السجن، فأرسل السكندري مع أحد الحجاج شكره للفقيه المغربي، "فأعلمه بأنه خلص بشفاعة الشيخ إسماعيل أو بضمانه" (السخاوي، ١٩٣٤، ج٢/ ص٣٠٤).

وتعبيراً عن مكانة العلماء المغاربة في مصر، فقد شهدت رحبة الأندلس بالفسطاط إقامة أول عزاء لتأبين السلطان الظاهر بيبرس (٦٥٨- ٦٧٦هـ/ ١٢٦٠- ١٢٧٨م) بعد وفاته بعام، عندما أمر أبنه الملك السعيد بركة خان (٦٧٦- ٦٧٨هـ/ ١٢٧٨- ١٢٨٠م)، سنة ٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م، بأجتماع

قراء القرآن والفقهاء بهذا الموضع، "وأقيمت المطابخ وهيئت المطاعم الكثيرة وفرقت على الزوايا ومدت أسمطة عظيمة بالخيام التي ضربت حول رحبة الأندلس، فأكل الناس على أختلاف طبقاتهم، وقرأ القراء ختمة شريفة، وعُد هذا الوقت من المهمات العظيمة المشهورة بديار مصر" (اليونيني، ١٩٥٤، ج٣/ص٣٨٥؛ المقريزي، ١٩٩٧، ج٤/ ص٣٣٤). ويبدو أن أختيار السعيد لرحبة الأندلس لأعطاء المغاربة مكانة أجتماعية تليق بهم وتضحيتهم بترك وطنهم والمجيء إلى مصر لأي سبب من الأسباب، إلى جانب ما عرفوا به في مجال الفقه والقراءات القرأنية التي ميزتهم عن غيرهم.

وإكراماً للعلماء الوافدين من المغرب والأندلس، فقد أقيم لهم رواق بأسمهم بالجامع الأزهر بالقاهرة وذلك بتوجيه من السلطان المملوكي الظاهر بيبرس، عندما أشرف الأمير عز الدين أيدمر الحلى (ت: ٦٦٧هـ/ ١٢٦٨م) نائب السلطنة آنذاك، على تجريد عمارة الجامع الأزهر وتهيئته لأستقبال المغاربة، وأفتتح سنة ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م (المقريزي، ١٩٩٧، ج٤/ ص٥٥). وأهتم السلطان الأشرف قانصوه الغوري (٩٠٦- ٩٢٢هـ/ ١٥٠١- ١٥١٦م)، خلال فترة توليه بدعم المغاربة هناك من خلال صرفه لمطبخ الجامع الأزهر في شهر رمضان من كل عام "بستمائة وسبعين ديناراً، ومائة قنطار (هانتس، ١٩٧٠، ص٤٠) عسل، وخمسمائة أردب (هانتس، ١٩٧٠، ص٦٢) قمح للخبز المفرق فيه" (ابن العماد الحنبلي، ١٩٨٥، ج٨/ ص١١٤).

كما ميزت السلطة المملوكية الوعاظ والقصاص المغاربة في هذا الرواق، فعندما منع السلطان الناصر محمد بن قلاوون في أيام سلطنته الثالثة (٧٠٩- ٧٤١هـ/ ١٣١٠- ١٣٤١م) الوعاظ والقصاص سنة ٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م، من عقد حلقات خاصة بهم أستثنى من ذلك شمس الدين محمد بن تازمرت المغربي، حتى "صارت له سوق كبيرة بسبب ذلك"، وكثر الحاضرون لمجالسه، وأشتهر بذلك بحيث أنفرد بهذا الفن في وقته (ابن حجر العسقلاني، ١٩٦٦، ص٣٠٤-٣٠٥). وربما يكون للجانب السياسي أثره في أتخاذ السلطان الناصر محمد بن قلاوون لمثل هذا الإجراء، لما عرف به علماء المغرب والوافدين منهم بعدم أفتعالهم للمشاكل أو التحريض ضد السلطة المملوكية أنذاك.

وحرص السلطان الأشرف برسباي (٨٢٥- ٨٤١هـ/ ١٤٢٢- ١٤٣٨م) أثناء زيارته لعمليات الترميم التي أمر بها في الجامع الأزهر سنة ٨٢٨هـ/ ١٤٢٤م، على زيارة كل من الشيخ خليفة المغربي (ت: ٨٢٩هـ/ ١٤٢٥م)، والشيخ سعيد بن عبد الله المغربي (ت: ٨٣١هـ/ ١٤٢٨م)، والوقوف على أحوالهما تكريماً لهما ولعلمهما (ابن حجر العسقلاني، ١٩٧٢، ج٣/ ص٣٧٧، ٤١١؛ ابن تغري بردي، ١٩٧٢، ج١٤/ ص٢٧٠-٢٧١). وتعبيراً عن المكانة السامية التي تمتع بها هذان الشيخان في المجتمع المصري.

ومن صور أهتمام السلطات المملوكية في مصر بالعلماء المغاربة الوافدين وبمكانتهم الأجتماعية، هي النصيحة التي صدرت عن ديوان الأنشأ في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون لقاضي القضاة المالكية والتي أشارت بـ"الأحسان إلى من لديه من غرباء أهل مذهبه، لاسيما من أتاه من بلاد المغرب" (القلقشندي، ١٩٢٢، ج١١/ ص٩٥)، وتمثل ذلك بالأحسان في توفير الرعاية الصحية في حالة تعرضهم لوعكات صحية بسبب تغير أجواء البلاد عليهم، وهذا العمل يعد أمتداداً لما قام به السلطان صلاح الدين الأيوبي (٥٦٧- ٥٨٩هـ/ ١١٧١- ١١٩٣م) عندما خصص مارستاناً لمعالجة المغاربة في الأسكندرية.

وأبرز من نال تلك الرعاية الشيخ الفقيه ابو بكر حميد بن عبد الله المالقي ثم القرطبي الذي مرض عند دخوله مصر متوجهاً إلى الحج، وقد تمت معالجته التي أستمرت سبعة عشر يوماً في العيادة السلطانية المخصصة لعز الدين أيبك (٦٤٨- ٦٥٥هـ/ ١٢٥٠- ١٢٥٧م) أنذاك، أي أنه حصل على رعاية وأهتمام كانت على أعلى رعاية وأهتمام كانت على أعلى المستويات دلالة على المكانة التي تمتع بها هذا الفقيه الذي توفي سنة (٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م) (ابن عبد الملك، ١٩٦٤، ١س/ق١/ص١٣٨-١٤٢). ويعد العالم زين الدين ابو عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن علي الفاسي المعروف بأبن الزقزوق من أوائل المغاربة الذين حصلوا على العلاج والعناية في مارستان المنصور بالقاهرة بعد أن ألم به مرض الشيخوخة لتجاوز عمره المئة عام حتى توفي سنة (٦٩٠هـ/ ١٢٩١م) (المقريزي، د.ت، ج٢/ ص١٨٧ب). وقد أدركت السلطة المملوكية أهمية الأعتناء بهكذا علماء والمحافظة على صحتهم لمكانتهم في المجتمع المصري ولدورهم الريادي في ميدان العلوم التي برعوا بها.

ومن أوجه مكانة المغاربة لدى السلطة المملوكية، هو قيام السلاطين المماليك بتعيين عدد من المغاربة على مشيخة دار الحديث الكاملية بالقاهرة ولا يتولى هذا المنصب إلا من يختاره السلاطين المماليك ويروا فيه الثقل الأجتماعي والسمعة الطيبة بين المصريين، وقد تولى عدد من أفراد أسرة القسطلاني المغربية مشيخة الدار، ومن أبرزهم الأخوان تاج الدين علي بن ابي العباس أحمد (ت: ٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م) (اليونيني،١٩٥٤،ج٢/ص٣٧١-٣٧٢؛ الذهبي،د.ت، ج٣/ ص٣١٣)، وقطب الدين محمد بن ابي العباس أحمد(ت:٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م)(اليونيني،١٩٥٤،ج٤/ص٣٣٠-٣٣١) وهما رائدي أسرة القسطلاني المغربية في تولي هذا المنصب المهم في مجال علم الحديث من بين العديد من العلماء المغاربة والمصريين وغيرهم.

وكان لسمة الصدق التي تحلى بها المغاربة تجاه الناس وتجاه السلطة وقولهم الحق دون خوف أو وجل، أن جعلهم في مصاف الطبقة المميزة في المجتمع لدى السلاطين المماليك، حيث كان لهذا الصدق محل أعتناء السلاطين المماليك الذين صاروا يطمئنون اليهم في التعرف على أخطاء حكمهم. ومثال ذلك ما فعله السلطان الأشرف قايتباي (٨٧٢- ٩٠١هـ/ ١٤٦٧- ١٤٩٥م)، عندما أختارهم دون غيرهم من طوائف المجتمع المصري ليستأنس بهم وبأرائهم العامة فيه وفي نظام حكمه وحاشيته وموظفيه، فتنكر مرة بهيئة أحد المغاربة وأندس بين نزلاء رواق المغاربة بالجامع الأزهر وصلى معهم طوال شهر رمضان من سنة ٨٨١هـ/ ١٤٧٧م، حتى كان "بعض الناس يحط عليه في أفعاله، وهو يسمع ذلك بأنه ممن يسأله" (ابن إياس، ١٩٨٤، ج٣/ ص١٢١). وهو بذلك يمنحهم مكانة المستشار الغير مباشر له من خلال إطلاعه على أخلاقهم وصدقهم في عملهم ودينهم وفي قولهم الحق.

وتكريماً لأهل المغرب وتعبيراً عن حب السلاطين لهم ورفعهم لمكانتهم في المجتمع المصري، فقد عمد بعض السلاطين المماليك على أرتداء الأزياء الخاصة بهم، كما فعل السلطان العزيز يوسف بن الأشرف برسباي (٨٤١- ٨٤٢هـ/ ١٤٣٧- ١٤٣٨م)، حيث كان هو ورفيقه يرتديان الزي المغربي عندما تم ألقاء القبض عليهما بواسطة جنود السلطان الظاهر جقمق (٨٤٢- ٨٥٧هـ/ ١٤٣٨- ١٤٥٣م)، في سنة ٨٤٢هـ/ ١٤٣٩م (ابن تغري بردي، ١٩٧٢، ج١٥/ ص٣١٤-٣١٥). كما أرتدى السلطان المملوكي طومان باي (٩٢٢هـ/ ١٥١٦م) الزي الخاص ببربر هوارة وزناته، وهي أكسية من الصوف المزركشة ذات العلامات المميزة، وذلك عندما تم إقاء القبض عليه ومحاكمته أمام السلطان العثماني سليم الأول (٩١٨- ٩٢٦هـ/ ١٥١١- ١٥١٩م) (ابن إياس، ١٩٨٤، ج٥/ ص١٧٥، ٢٨٩-٢٩٠، ٣٢٥). ويبدوا أن للمغاربة أنذاك مكانة مميزة تجعلهم بعيدين عن الشبهات بحكم ألتزامهم بقوانين وأنظمة السلطة القائمة في مصر وعدم تدخلهم بالأضطرابات السياسية التي تحدث في البلاد بين فترة وأخرى.

وبقرار من السلطان الظاهر برقوق (٧٨٤- ٨٠١هـ/ ١٣٨٢- ١٣٩٨م) أطلقت تسميات على مناطق سواحل مصر الشمالية الغربية وبالفيوم وصعيد مصر تحمل أسماء قبيلة هوارة البربرية بعشائرها المختلفة، أكراماً لتلك القبائل ورؤوسائها، ومن هذه الأماكن: قرية الهوارية الواقعة حالياً على مسافة ٤٤كم من الأسكندرية بأتجاه مرسى مطروح (رمزي، ١٩٦٣، ج٤/ ص٢٥٠). وقرية هوارة القبلية بالفيوم التي أندثرت ومحلها الآن عزبة علي فرج من توابع ناحية هوارة البحرية المعروفة بهوارة

المقطع مركز الفيوم (ابن الجيعان، ١٩٧٤، ص١٥٨؛ رمزي، ١٩٦٣، ج٣/ ص١٠٣)، وهي غير هوارة عدلان المعروفة إلى اليوم بالفيوم أيضاً (رمزي، ١٩٦٣، ج٣/ ص١٩٢).

وفي صعيد مصر هناك قرية أبي شوشة بمركز حماد بمحافظة قنا التي تنسب إلى الأمير محمد بن عمر بن عبد العزيز ثالث أمراء هوارة بقرية جرجا (ياقوت الحموي، ١٩٩٥، ج١/ ص١٢٣؛ ج٢/ ص١١٩) وهو المعروف بأبي السنون وأن كان حُرّف الأسم إلى أبي شوشة (رمزي، ١٩٦٣، ج٣/ ص١٩٢).

ثالثاً:- مكانتهم لدى أهل مصر.

عُرفَ عن أهل مصر حبهم للعلم والعلماء فنال المغاربة ومن رافقهم من الوافدين هذا الحب والأهتمام، فرفعوا من مكانتهم من خلال توقيرهم والألتفاف حولهم، وقد شارك أهل مصر في التعبير عن هذا الشعور تجاه الوافدين المغاربة، فأقبلوا على دروسهم وساعدوا المحتاج منهم، وكانوا يعبرون عن حزنهم إذا ما غادروا البلاد، وكانت تلك المكانة العظيمة للعلماء المغاربة في حياتهم ومماتهم.

ومن ذلك موقف أهل مدينة قنا بصعيد مصر وأعتقادهم في عظيم مكانة الفقيه إبراهيم بن علي بن عبد الغفار بن أبي الدنيا الأندلسي، عندما نزل ضيفاً على المدينة في طريقه للحج، فأقدم أهل المدينة على بناء رباطاً لأيوائه وغيره من المغاربة الزاهدين، ونتيجة لموقف أهل قنا هذا، فقد أختار الفقيه ابن أبي الدنيا المكوث بين أهل قنا تقديراً لموقفهم هذا، فتزوج وأنجب وتوفي في هذه المدينة سنة (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م)، حتى بات قبره مزاراً يتبرك به المصريين لعظيم مكانته عندهم (الأدفوي، ١٩٦٦، ص٥٩-٦٠).

وعندما خرج الفقيه الزاهد ابو علي عمر بن عبد المحسن الوجهاني الصواف المغربي البجائي للحج في منتصف القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، لم يحمل معه مؤنة السفر، أي أنه أعتمد على ضيافة الناس على طول الطريق، وقد تعجب أحد رفاقه من كيفية حصوله على المؤن طول الطريق، لاسيما في مصر وتلاشى هذا العجب أمام الترحاب الذي لقيه الفقيه على كافة المستويات، إذ كان "أخيار الأمراء يرغبون أن يحملوه على رؤوسهم، فضلاً أن يحملون على المحامل. وهو يمتنع مع ذلك" (الغبريني، ١٩٧٩، ص٢٠٠-٢٠١). وهذا ما ميز المصريين وحكامهم من خلال تكريم وتبجيل العلماء الوافدين إليهم.

كما كانت بيوت المصريين مسكناً وموئلاً للعلماء المغاربة، ومن ذلك موقف شمس الدين محمد القيصوني المصري (ت: ٩٣١هـ/ ١٥٢٤م) الذي يعد من أعيان مدينة القاهرة في آواخر العصر المملوكي، حيث جعل من داره موئلاً للعديد من العلماء والزهاد المغاربة الذين نزلوا في القاهرة، من

أمثال الفقيه المالكي شهاب الدين ابن شقير التونسي (ت: ٩٠٩هـ/ ١٥٠٤م)، والزاهد عمر البجائي (ت: ٩١٩هـ/ ١٥١٣م) وغيرهما (الغزي، ١٩٤٥، ج١/ ص٩٥).

وقد أهتم أهل مصر بالمغاربة المجاورين في أروقة الجامع الأزهر، فتطوع المتيسرين والتجار المصريين للأنفاق عليهم والوقوف معهم من أجل عدم أحساسهم بالغربة في مصر ولينفقوا عليهم، لاسيما في المواسم الدينية كشهر رمضان والعيدين وغيرهما، كما فعل صدقة بن الشريشي أحد أثرياء القاهرة (ت: ٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م) (ابن حجر العسقلاني، ١٩٦٦، ج٢/ ص٣٠٤-٣٠٥). كما أوصى التاجر المصري يعقوب البرلسي (ت: ٨٨٣هـ/ ١٤٧٩م)، بمائة وثمانون ديناراً من أمواله للمغاربة المجاورين في الأزهر الشريف (السخاوي، ١٩٣٤، ج١٠/ ص٢٨٥-٢٨٦).

أما عن بربر المغرب، فقد فرضوا أنفسهم على المجتمع المصري بقوة أثر نزولهم في الصعيد أبتداءً من سنة ٧٨٢هـ/ ١٣٨٠م، عندما صارت لقبيلة هوارة البربرية الكلمة العليا على غيرهم في قرية جرجا، وأصبحت الأمرة فيهم في بيت ابن عمر الهواري "في معنى مشيخة العرب"، حسب تعبير القلقشندي الذي كرر الوصف أكثر من مرة للدلالة على الأهمية الأجتماعية والسياسية لهذه العناصر البربرية في المجتمع المصري آنذاك (القلقشندي، ١٩٢٢، ج٤/ ص٧١؛ القلقشندي، ١٩٨٢، ص١٧٤). ولعل في أحتفاظ مناطق عديدة من قرى مصر حتى الوقت الحاضر بأسماء من نزل منهم من هذه العناصر البربرية القادمة من المغرب الإسلامي ما يدل على المكانة والخصوصية التي تمتعوا بها هؤلاء في المجتمع المصري.

الخاتمة.

كان المجتمع المصري من أكثر المجتمعات تفاعلاً وأنفتاحاً مع الوافدين إليها، لاسيما المغاربة منهم وعلى أختلاف مستوياتهم، بحكم وقوع مصر على طريق الحج، والتجارة الدولية، وطرق الرحالة، فضلاً عن كونها مركزاً علمياً مرموقاً في العالم الإسلامي، مما جعلها على تماس مباشر مع مختلف الثقافات التي يحملها هؤلاء الوافدين إليها.

مثّل العصر المملوكي في مصر أمتداداً تاريخياً لأحتواء المغاربة والأندلسيين القادمين إلى مصر عبر مختلف العصور، مما أكسبهم مكانة مميزة في مصر تلك المكانة التي عبر عنها علماء مصر وتلاميذهم من خلال عديد المواقف والمحطات التي عبروا فيها عن حبهم لأقرانهم من المغاربة، إلى جانب موقف السلطة المملوكية منهم من خلال رفع شأنهم داخل المجتمع وإعطائهم مكانة تليق بهم وبجهودهم التي قدموها في مصر ضمن نشاطاتهم الحضارية المتنوعة والتي أثرت البلاد وجلبت لها

المنفعة، فضلاً عن الدور المهم لأبناء مصر وأهلها في أحتوائهم وتقديرهم لأعطائهم مكانة تليق بهم في مجتمعهم الجديد، تلك المكانة التي لم تقل عن المكانة التي عاشوها في مجتمعاتهم السابقة.

عرفت مصر تسمية العديد من المدن والأماكن بالأسماء المغربية، فضلاً عن تأثير المغاربة بالمجتمع المصري من حيث الملبس والمأكل وحتى طريقة الكلام المغربية التي شاعت بين أفراد المجتمع المصري وسلطته الحاكمة.

المصادر والمراجع:

١- الأدفوي، كمال الدين ابو الفضل جعفر بن ثعلب الشافعي (١٩٦٦م)، (ت: ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)، الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد، تحقيق، سعد محمد حسن، منشورات الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة.

٢- ابن أياس، محمد بن أحمد الحنفي، (١٩٨٤م)، (ت: ٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق، محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ج٣.

٣- التجيبي، القاسم بن يوسف بن محمد بن علي السبتي، (٢٠٠٣)، (ت: ٧٣٠هـ/ ١٣٣٠م)، مستفاد الرحلة والأغتراب، تحقيق وإعداد، عبد الحفيظ منصور ، الدار العربية للكتاب، تونس.

٤- ابن تغري بردي، جمال الدين ابو المحاسن يوسف الأتابكي، (١٩٧٢م)، (ت: ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة، دار الكتب المصرية، القاهرة، ج١٤.

٥- ابن جبير،ابو الحسن محمد بن أحمد،(د. ت)،(ت:٦١٤هـ/ ١٢١٧م)، رحلة ابن جبير، دار ومكتبة الهلال، بيروت.

٦- ابن الجيعان، شرف الدين يحيى بن المقر، (١٩٧٤م)، (ت: ق٩هـ/ ١٥م)، التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية، قدمه وعلق على حواشيه، ب. موريتز، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.

٧- ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي، (١٩٧٢م)، (ت: ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م)، إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق، حسن حبشي، لجنة أحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ج٣.

٨- ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي، (١٩٦٦م)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، حققه وقدم له ووضع فهارسه، محمد سيد جاد الحق، ط٢، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ج٢.

٩- الذهبي، شمس الدين ابو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان، (د. ت)، (ت: ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)، العبر في خبر من غبر، تحقيق، ابو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ج٣.

١٠- رمزي، محمد، (١٩٦٣م)، القاموس الجغرافي للبلاد المصرية، دار الكتب المصرية، القاهرة، ج٤.

١١- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد المصري، (١٩٣٤م)، (ت: ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، القاهرة، منشورات مكتبة القدسي، القاهرة، ج٨.

١٢- ابن سعيد المغربي، ابو الحسن علي بن موسى بن سعيد وآخرون، (١٩٥٣م)، (ت: ٦٨٥هـ/ ١٢٨٩م)، المغرب في حلى المغرب، القسم الخاص بمصر، تحقيق، زكي محمد حسن وآخرون، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة، ج١.

١٣- الصفدي، صلاح الدين خليل بن ايبك بن عبد الله، (٢٠٠٠م)، (ت: ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م)، الوافي بالوفيات، تحقيق، أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، بيروت، دار أحياء التراث، بيروت، ج٢.

١٤- عبد الحميد، سعد زغلول، (١٩٧٥م)، الأثر المغربي والأندلسي في المجتمع السكندري في العصور الوسطى، مقال بكتاب مجتمع الأسكندرية عبر العصور، مطبعة جامعة الأسكندرية، الأسكندرية.

١٥- ابن عبد الملك، ابو عبد الله محمد بن محمد الأنصاري، (١٩٦٤م)، (ت: ٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م)، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق، محمد بن شريفة وأحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، س١/ ق١.

١٦- ابن العماد الحنبلي، ابو الفلاح عبد الحي بن العماد، (١٩٨٥م)، (ت: ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ج٨.

١٧- العيني، بدر الدين محمود بن أحمد، (١٩٨٧م)، (ت: ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م)، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق، محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ج٢.

١٨- الغبريني، ابو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله البجائي، (١٩٧٩م)، (ت: ٧٠٤هـ/ ١٣٠٤م)، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، حققه وعلق عليه: عادل نويهض، ط٢، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت.

١٩- الغزي، نجم الدين محمد بن محمد القرشي، (١٩٤٥م)، (ت: ١٠٦١هـ/ ١٦٥٠م)، الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، تحقيق، جبرائيل سليمان جبور، مطبوعات الجامعة الأمريكية، بيروت، ج١.

٢٠- القلقشندي، ابو العباس أحمد بن علي بن أحمد، (١٩٢٢م)، (ت: ٨٢١هـ/ ١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الأنشا، دار الكتب المصرية، القاهرة، ج١١.

٢١- القلقشندي، ابو العباس أحمد بن علي بن أحمد، (١٩٨٢م)، قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تحقيق، إبراهيم الأبياري، ط٢، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

٢٢- لسان الدين ابن الخطيب، ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد الأندلسي، (٢٠٠٣م)، (ت: ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م)، الأحاطة في أخبار غرناطة، دار الكتب العلمية، بيروت، ج٢.

٢٣- مجهول، مؤلف، (١٩٦١م)، كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين، تحقيق: أمبروزيو أويثي ميراندا، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد.

٢٤- محمد، علي سلطان عباس، (٢٠٠٠م)، المغاربة في مصر وبلاد الشام في عصر الحروب الصليبية (٤٩٠- ٦٩٠هـ/ ١٠٩٨- ١١٩٠م)، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية التربية، جامعة الموصل .

٢٥- مسعد، سامية مصطفى، (٢٠٠٢م)، المغاربة ودورهم الثقافي في مصر عصر سلاطين المماليك، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والأجتماعية، القاهرة.

٢٦- المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني، (١٩٩٧م)، (ت: ١٠٤١هـ/ ١٦٣١م)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق، إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج٤.

٢٧- المقريزي، ابو العباس تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر، (د. ت)، (ت: ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)، المقفى الكبير، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٣٧٢ تاريخ، رقم مخطوطة هذا الجزء ١٥٠٢٥، ج٢.

٢٨- المقريزي، ابو العباس تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر، (١٩٩٧م)، المواعظ والأعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، دار الكتب العلمية، بيروت، ج٤.

٢٩- هانتس، فالتر، (١٩٧٠م)، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمه عن الألمانية: كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان.

٣٠- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله بن ياقوت، (١٩٩٥م)، (ت: ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ج٤.

٣١- اليونيني، قطب الدين ابو الفتح موسى بن محمد، (١٩٥٤م)، (ت: ٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م)، ذيل مرآة الزمان، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ج٣.